الزباء

بيدي، لا بيدك يا عمرو

كلمة الأزب في اللغة العربية تعني"الكثير الشعر".

ولقد لقّبت الزباء بهذا اللقب: لأن شعرها الطويل كان أعجوبة للناظرين في كثافته وطوله، لدرجة أنها كانت حينما تمشي تسحبه وراءها.

أما اسمها الحقيقي، فقد ضاع بين صفحات التاريخ القديم.

قال الطبري إن اسمها "نائلة بنت عمرو"، وقال الكلبي إنه "فارعة"، أما الذهبي فقال: اسمها "ميسون بنت عمرو".

ولكن نسبها المؤكد يعود إلى والدها الملك عمرو بن طرف، الذي كان ملكاً على الشام والجزيرة.

اعتلت الزباء عرش المملكة، بعد مقتل أبيها على يد الملك جذيمة صاحب العراق، وذلك اثناء إحدى المعارك، وهكذا لبست الزباء تاج الملك وهي ثكلى تذرف الدموع، وتطلب ثأر أبيها من قاتله.

obeikandl.com

لكن الملك القاتل لم يكن هدفاً سهلاً، فهو من أفضل الملوك قوة وأشدهم بأساً، وهو أول ملك استطاع أن يوحد أرض العراق رغم عصيانها داخل مملكة واحدة، بل إن شجاعته وبسالته في القتال كانت مضرب الأمثال.

لذا فمن الواضح الجلي: أن أي نزال بينه وبين الزباء سيكون فيها نهايتها المحتومة.

فما العمل ودم أبيها يطالبها بالثأر، وعوامل الفشل تحيط بها وتشل تفكيرها وترهب عزيمتها؟

أخذت الملكة الحزينة تفكر في الأمر طويلاً، وتقلبه على كل الوجوه.

كانت تعرف أنها لو هزمت أمام جذيمة، فكأنها أباحت له مملكتها صيداً سهلاً يعزز بها مكانته.

فهل تجازف؟ وتخوض حرباً هي ليست كفؤاً لها؟!

وحسمت الزباء الأمر. عدلت عن فكرة التصادم مع جذيمة في معركة غير متكافئة. فقد كانت تعلم بالضبط حجم قدراتها، وكان الغرور والعنجهية أبعد الصفات عن شخصيتها، فهي إنسانة منطقية وفوق كل شيء واقعية.

كانت تعرف أنها ليست صاحبة مواهب قتالية، وأن بلادها أنهكتها الحروب وقضت على خير جنودها.

فآثرت السلامة.

لكنها كانت تعلم أن قرارها هذا لا يضمن لها السلامة.

فعدوها مازال متربصاً بها، يتحين الفرصة للنيل منها وتحقيق أطماعه بغزو مملكتها.

إذن، فقد كان لزاماً عليها أن تجد حلاً سريعاً لهذه المشكلة، فأخذت تحصن المملكة على طول شط الفرات، كي تضمن تصديها للغزاة، ثم حفرت لها نفقاً سرياً وأخفته عن أعين البصاصين والجواسيس، كي لا يعلم بوجوده أحد، وعندما أتمت تحصين مملكتها وتأمين حياتها، كتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها صراحة، وتعده بملكها، حيث قالت له:

ـ لم أجد ملك النساء إلا قبيحاً في الأسماع وضعيفاً في السلطان، ليس لي حيلة لضبط المملكة، فأنا لا أجد نفسي كفؤاً لهذا الأمر الصعب، بل لا يصلح للأمر غيرك، فاقبل إليّ اجمع ملكي إلى ملكك، وأصل بلادي ببلادك، فتقلدْ أمري مع أمرك.

فلما وصل كتابها إلى الملك جذيمة، وقرأ ما فيه لم يشك في نوايا الملكة، واستبشر خيراً حيث ارتجى ملكاً أوسع.

عرفت الزباء كيف تناوش أطماعه، وتحرك غرائزه، لوحت له بالمجد والسلطان، وهيأت له الطريق لضم الممالك دون عناء، بل

وسلّمت له نفسها وهي الجميلة ذات الحسن الباهر التي يخطب ودها ملوك البلاد، فمن ذا الذي يرفض منحة كهذه؟

لكن جذيمة رغم تحمسه لهذا العرض، لم يسارع في الرد عليها، قبل أن يناقش الأمر مع هيئته الاستشارية.

جمع أصحاب الرأي وخلصاء أتباعه، ناولهم مكتوب الزباء وطلب منهم رداً عليه، فما تمهلوا حتى قالوا: وهل في ذلك رأي؟إنها تعرض عليك مملكتها بعد أن استبانت ضعفها وقلة حيلتها، وكيف لها وهي فتاة غرة لا حول لها ولا قوة، لا قبل لها بمجاراة الملوك، ولا بصدهم فآثرت أن تسلم وتضمن السلامة، فالرأي أن تقبل فوراً عرضها عليك، وتتأهب في الحال للذهاب إليها مثلما أشارت.

لكن رجلاً واحداً من الجمع، اسمه قصير، أدهشهم بصياحه المفاجئ قائلاً: رأي فاتر وغدر حاضر.

وكان هذا الرجل من أخلص اتباع الملك وكان يتميز بآرائه الصائبة، وتمتعه بالدهاء والحنكة في أمور الحكم والحكام، فخالفهم الرأي وسخر من أقوالهم، محاولاً لفت نظر جذيمة إلى شرك يُساق إليه، ومكر خلف الكلمات والوعود البراقة.

لكن جذيمة كان قد حزم الأمر، وقرر قبول عرض الملكة، خاصة بعد أن أقره ابن أخته عمرو بن عدي على رأيه، واستحث

على سرعة تنفيذه، فسار جذيمة إلى الزباء على الفور، يحيط به حرسه الخاص، بعد أن رفع عمرو بن عدي على عرش العراق نائباً عنه فترة غيابه.

فلما اقترب من حدود ملكة الزباء استقبله رسل الملكة بالهدايا والورود، حتى إذا ما توغل في المملكة: فوجئ بجند الملكة يحيطون به من جميع الاتجاهات، بدعوى مرافقته حتى أبواب القصر الملكي، فتوجس الملك خيفة، ولاحت له دلائل الشرك واضحة، بالرغم من هذا فقد كذب هواجسه، وبعد، فهو لم يعد بمقدوره التراجع، وليس له من مخرج واحد.

وصل جذيمة أخيراً إلى قصر الملكة، وهناك سمحوا له ان يدخل عليها لكن وحده دون حرس، فلما رأته وكانت جالسة على عرشها بعباءتها الملكية، قالت له: يا جذيمة.. هل تراني قد تزينت لك كعروس؟!

حينئذٍ علم جذيمة أنها قد مكرت به، وأنه وقع صيداً سهلاً بين يديها، فحاول أن يثنيها عن فكرة الانتقام ويحاورها بالعقل والحكمة، لكنها أصمت أذنيها عن سماعه وجاوبته بعبارات العداء والقسوة، فلم يجد أمامه إلا صدى نزعة وحشية متعطشة لسفك دمه ثأراً وانتقاماً، وما هي إلا لحظات، حتى أمرت الملكة، فاقتادوه إلى الموت.

وهكذا مات جذيمة قاتل الملك عمرو، واستراحت الزباء بعد أن حققت هدفها وارتوت من دماء ألد أعدائها، فلما وصل خبر جذيمة إلى ابن أخته عمرو بن عدي، ثار ثورة رعناء، وأقسم لينتقمن من الزباء شر انتقام، وبدأ فعلاً في إعداد جيوشه لاقتحام بلادها، وتدمير مملكتها جزاءً لها على غدرها بخاله الملك، لكن "قصير" أدركه قبل أن ينفذ خطته واستمهله قائلاً:

لقد ذهب خالك الملك الأعظم ضحية لتسرعه، ولا أريد لك نفس المصير، فهذه الملكة الداهية شديدة الحذر والذكاء، ماذا يفيدنا الزحف على بلادها وهي تستخفي عن الأنظار مع كل خطر، فلا يصل إليها أحد، ولا يعرف بشر أين تختفي، فأسرارها كثيرة، وأماكنها الخفية لا علم لنا بها. فرد عليه عمرو بن عدي وقد اقتنع بوجهة نظره ووجد أنها جديرة بالدراسة والتمحيص متسائلاً: إذن بماذا تشير عليّ؟

وهنا فوجئ عمرو برد غريب، فلقد قال له قصير: إن الحل عندي، لكني أطلب منك طلباً لا ترده ولا تعارضني فيه، وهو أن تضربني بالسوط حتى يتهرأ جلدي، ثم تجدع أنفي!

ذُهل عمرو من هذا الطلب الغريب الذي أراده قصير، حتى كذب أذنيه، وراح يتفرس فيه، كأنه يشك في قواه العقلية قبل أن

يسأله مستفسراً: ولماذا تفعل بنفسك هذا، وكيف تريد مني أن أعذبك هذا العذاب؟

فردّ عليه قصير: إما أن تفعل بي هذا ولا تسأل، وإما أن تنسى ثأر خالك، لأنك لن تصل إلى الملكة أبداً.

فلما سمع عمرو منه هذا القول، ورأى التصميم في وجهه، نفذ له ما أراده وهو في أشد حالات الدهشة، وإن كان قد علم أن قصير بفعلته هذه يمكر للملكة.

بعد ذلك خرج قصير من العراق قاصداً الزباء، متلمساً طريقه كأنه هارب وهو في أسوأ حال، فلما وصل إلى قصرها، قيل لها: إن قصيراً بالباب يطلب المثول بين يديك، فأمرت أن يدخل عليها، فلما رأته على هذه الهيئة الشوهاء، قالت له: من فعل بك هذا يا قصير؟!

فاجابها: فعله عمرو بن عدي، فقد اتهمني أنني غررت بالملك جذيمة خاله، وإنني زينت له السعي إليك فخدعته وسقته لكِ صيداً سهلاً، فاتهمني بالخيانة وعاقبني بتعذيبي، فأصبح حالي كما ترين، فلم أجد مكاناً آوي إليه وقد أصبح العراق تحت نفوذه، فهربت، وقلت أحتمي بكِ من غدر الزمان، فهل تقبليني خادماً مطيعاً ومخلصاً ناصحاً أميناً، فأنا الآن ملك يديك وأفديكِ بروحي وحياتي.

لم تشك الزباء في كلام قصير، وقد رأت بعينيها أدلـــة صدقـــه ووحشية من انتقموا منه.

دخل عليها مكره الذي أتقنه، فأعطته الأمان وجعلته من ندمائها.

أما قصير فلم يأل جهداً في كسب ثقة الملكة، بما كـــان يغدقـــه عليها من نصائح ثمينة، وآراء صائبة، فوجدت فيه الزباء ضالتـــها المنشودة ونعم السند لها، فقد استحوذ عليها بحكمته وبراعتـــه فـــي تصريف شئون الحكم والرعية، فكان له من الحزم والقوة ما مكّنـــها من إحكام قبضتها على المملكة، كما كان له من الخبرة والمعرفـــة: ما أفاد الملكة في تدبير أمور رعيتها، ونهج سياسة ترتقي بـــالبلاد، فأصبح في فترة وجيزة أقرب المقربين إليها وأخلـــص المشـــيرين عليها، فلما تيقن أنها قد وثقت به ثقة عمياء، بادرها يوماً بمشـــروع عجيب!

قال لها: مولاتي الملكة، تعرفين كم أدين لك بـــالفضل، ومـــهما فعلت فلن أوفيكِ حقك لعطفك عليّ، لكن عندي لك مفاجأة فيها الخير لك، راجياً بها أن أرد ولو جزءاً ضئيلاً من جميلك عليّ.

فلما استوضحته قال: إن لي في العراق أموالاً كثيرة كنـــت قـــد ادخرتها طيلة حياتي، فأنا أهبها لكِ هدية متواضعة، والأهـــم منـــها أنني قد وجدت أن المملكة تنقصها أشياء كثيرة تمتلئ بـــها أســـواق العراق، أستطيع أن أشتريها بأقل الأسعار، ثم نبيعها في المملكـــة،

فنحصل على أرباح طائلة، فأنا أعرف كل ما في العراق من صنوف الحبوب والعطور والثياب والأمتعة، وغيرها من المنتجات التي لا مثيل لها هنا، كذلك توجد في هذه المملكة أشياء كثيرة ليست موجودة في العراق، فأنا أرى أن نقوم بعملية تجارية، فنربح من الأموال ما يفوق الحصر، وأنا ما أشرت عليك إلا بما فيه الخير لك.

وأخذ يعدد لها مزايا هذا المشروع التجاري، حتى وافقت وزودته ببعض العير المحملة بالمنتجات المحلية، ليبيعها في أسواق العراق، وشراء صنوف جديدة لم تكن تسمع عنها.

وبالفعل وصل قصير إلى العراق متنكراً، فدخل من فوره على عمرو بن عدي، وأطلعه على خطته، وحكى له ما صار معه، فأمر الملك أن يأخذ قصير كل ما طلبه من منتجات العراق من ثياب وعطور وأمتعة وحبوب وغيرها، فرجع قصير إلى الزباء محملاً بكل صنوف المنتجات المحلية العراقية، والتي تقدر بثروة طائلة تفوق أضعاف رأس المال الذي أعطته الزباء، فانبهرت بما رأت، وفوق كل هذا فقد بيعت هذه المنتجات في أسواق المملكة، وربحت الزباء من ورائها أموالاً كثيرة، ففاز قصير بإعجابها، وازدادت فيه ثقتها، وأرادت أن تخوض هذه التجربة مرة ثانية، فجهزت من البعير ضعف المرة السابقة، ولم تبخل على هذه الحملة التجارية

بمال وافر أنفقه قصير في شراء المنتجات الشامية للمقايضة عليها في الأسواق العراقية، كالمرة الأولى عاد قصير بقافلة تجارية أكبر، ومنتجات عراقية أغلى ثمناً، وأكثر إبهاراً، حتى أدار رأس الملكة بالمكسب الوفير والهدايا المدهشة.

لكن في المرة الثالثة: عادت الإبل من رحلتها التجارية محملة بالرجال بدلاً من البضائع.

فلقد وضع عمرو نهاية لصبره على الزباء، وفصل في الأمر فإذا: كل بعير تخبئ فوق ظهرها ـ تحت ستار من الثياب والمتاع ـ جندياً يحمل سلاحه، فلقد تحين قصير الوقت المناسب: ليضرب ضربته وينفذ خطته، وكانت مفاجأة للملكة غير متوقعة بالمرة، فلما توغلت العير داخل المملكة في ثقة واطمئنان، دون أن يعترضها عائق أو يشك فيها أحد، ووصلت بالقرب من قصر الملكة، إذا بصيحة مفاجئة، بعدها أظهر الرجال المختبئون أنفسهم وأعلنوا عن مقصدهم، وهموا بأهل المملكة، وأعملوا فيهم القتل والمذبحة.

أما الملك عمرو بن عدي فلم يضيع وقته، ترك الأهالي للجنود، وتوجه هو إلى باب النفق الذي دله عليه قصير، حيث تفر الملكة كعادتها عند الخطر.

وهناك على باب النفق وقف ينتظر الزباء.

فما هي إلا لحظات: حتى لمحها مهرولة لتحتمي بالنفق من بطش الجنود، فلما أبصرت عمرو: عرفته، وأيقنت من هلاكها، لكنها آثرت أن تضع بنفسها نهاية لحياتها، فعندما هم بها شاهراً سيفه، ليطعنها، سارعت هي بوضع خاتمها المسموم على فمها، وابتلعت ما فيه من سم، لتختم بيدها فصول حياتها. ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، استجمعت قواها، لتقول مقولتها الشهيرة: بيدي.. لا بيدك يا عمرو!

obeikandl.com